لاءات

قصص قصيرة

تأليف
أسامة قَرمان

لاءات

(قصص قصيرة)

تأليف: أسامة قَزمان

الناشر: دار العلوم للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 2006/1735

الترقيم الدولي: 6-077-380-977

الطبعة الأولى: 1427 هـ / 2006 م

العنوان:
43ب شارع رمسيس - أمام جمعية الشبان المسلمين - الدور السادس - شقة 71 - معروف .

المراسلات: ص ب: 202 محمد فريد 11518 القاهرة

هاتف: 5761400(202) فاكس: 5799907(202)

إدارة المبيعات:
0101636192 - 0124940270

البريد الإلكتروني:
daralaloom2002@yahoo.com
daralaloom@hotmail.com

إهـــــــداء

إلي روح أستاذي الجليل، وصديقي النبيل الذي علمني الكثير..

د. النعمان القاضي

وإلي أستاذي القدير الذي جعلني من أحرار الفكر..

د.عبد المنعم تليمة

وإلي كل من خفق قلبي بحبهم.

أســـامة..





القاهرة بغداد

اهتف من قلبي .. (**يسقط رعاة البقر .. يسقط رعاة البقر .. يسقط .. يسقط ..)** جلدي يقشعر .. قلبي يزداد خفقا دمــوع فــي عينيــي. **(نفس المكان منذ سنين..نزأر ضد الهــزيمة.. كرامتنا تنزف.. نواجه عصى الجنود .. دوار الضــربة التي نزلت على جمجمتي تجعلني أترنح .. خيط مــن دم لــزج ينسال على رقبتي.. اشتد هجوم الجنود .. ســواد ملابســهم يعــتم مجال إبصاري .. أتهاوى تحت الأحذية الضخمة .. ألمح بعض رفاقي يتساقطون بجواري .. آخــرون يقــاومون .. صوتهم يجلجل ضد الطغاة .. ضــربات الهــراوات تتلاحق فوق رأسي المنشق.. تتفتت عظامــه .. يــنطلق وميض من أعماق المخ المتهرئ.. يصعد إلي عليين .. يمتزج بأطياف الأزل .. ينتظر جسدا يتلاءم مع إشعاعيته الخاصة .. يحل فيه .. فادرك أنني هو حينما تشعل وجداني أنباء الغزو الأمريكي للدنيا ..)**
تدهمــنا الوحوش البشرية سوداء الزي ثانية .. نتساقط فوق أسفلت الطريق.. بعضنا ينزف.. وآخرون بلا حراك تخنقهم

رائحـــة الغازات المنهكة.. رأسي يتشقق من جديد.. وميض روحـــي يــنطلق شعاعا يمتد عبر الأثير.. يدور حول آفاق بغداد.. يحل فى جسدي المنزلق من غياهب الغيب..(**انتظر الصباح ساهدا .. "سهيلة " .. زميلتي فى جامعة بغداد .. لا تصدق أننا التقينا من قبل ..**

- جمعتنا مروج الزهر.

- أين ؟.

- فى فضاءات الأزل.

- أنت تبالغ .

- لكنني صادق .

-وبعد ؟ .

- أحبك .

- واهم .

- كنا معا .

- أين ؟ ! .

- فى الأجواء السرمدية .

- عدت للخيالات، أفصح عن نواياك .

- **الارتباط .**
- **نتزوج؟! .**
- **أمل .**
- **بلا حب؟ .**
- **أحبك .**
- **بلا كرامة ؟ مع الاحتلال؟ .**
- **سنقاوم ....)**

أفيق من غيبوبتي .. أنتبه .. أنهض .. أندفع نحو الغزاة .. أصـــنع مـــع الآلاف كتلة بشرية هادرة .. نرفع الأعلام .. نجأر .. (**يسقط الطغـــاة .. يسقط الغــزاة .. ..**)
نـــار تحـــرق يدي .. تنحدر الراية .. أتناولها بالأخرى .. مقـــذوف ثـــان يمزق ذراعي .. أتشبث بالراية .. رصاصة ثالثة في صدري تصرعني .. ألمح جاري يسحب الراية من يـــدي .. يجأر (**تسقط أمريكا**) .. يرفعونه علي الأعناق .. يواصل (**تسقط أمريكا .. عملاء أمريكا** ..) و .. رصاصة فـــي قلـــبه .. يهوي أرضاً .. يتناول زميله الراية .. يكمل قـــيادة المســـيرة .. يشـــتد تدافع الآلاف نحو ذوي الوجوه

الحمراء .. يتقهقرون .. يركبون مصفحاتهم .. ويعودون .. بيـــنما أتســـرب مـــن الجسد المتهرئ الغارق في بركة الدم المسفوك .. وأطير إلى عليين .. أبحث عن كيان يتوافق مع كنهي الطيفي كي أعود من جديد.



لاءات

-١-

نصب النخاس خيمته الكبرى ..وخلف الستار وقفت فتيات أقمـــار تشـــرحن الصدر، وتبهجن النفس ،وتشعلن الرغبة، وتلهبن الشوق!

عودهن سمهري.. وصدورهن عاجية وبشرتهن ناعمة تنادى رمـــاح الطعن!.. وبالدور .. كانت واحدة ..واحدة ..تخرج مـــن خلف الستار وعليها غلالة رقيقة لا تلبث أن تسقط من اهتزاز حركاتها الراقصة وهى تؤدى مشهداً كاملا .

وجـــاء الدور عليها لكنها رفضت الخروج فجأة.. أبت أن تـــرقص أمـــام هـــؤلاء السفهاء . لم يرهبها وعيد النخاس بالجلد.. أعلنت ترحيبها بالموت مائة مرة ولا تمضغها أفواه الوحوش.

-٢-

قـــال صاحب الجلالة الملك المفدى في حفله السنوي الفاخر المدعو إليه كل مادح وشاكر:

- **هذا نصبناه وزيرا قبلوا يده .**

ففعلوا إلا واحدا . قال الوزير:

- **هذا نصبناه مديرا . قبلوا يده.**

ففعلوا إلا واحدا. قال المدير:

- **هذا نصبناه مفتشا يراقب ومنقبا يحاسب .قبلوا يده .**

ففعلوا إلا واحدا. أمروه . رفض . عذبوه . رفض . هددوه بإيذاء أبنائه . رضخ!

وفى احتفال **(يوم اللثم العالمي)** حضر جميع الضيوف وكل الوفـــود.. واقتاده الحراس وحده إلى الساحة الخالية.. ولحق بـــه" المفـــتش" يســـير فـــي خيلاء.. وعلى السلالم الدائرية المحـــيطة بالســـاحة والمتصـــاعدة إلـــي أعلـــى.. آلاف الجماهيرتشـــاهد خضـــوع الـــثائر .رجال البلاط.. الخاصة الملكية..الحاشية ..أعضاء جمعية المنتفعين .. وكل الخبثاء ..كـــانوا جميعا ينظرون إليه في شماتة. أما الشرفاء فكانوا ينظرون إليه بإشفاق !

تقـــدم خطـــوة.. انحـــنى.. أمســـك يد المفتش بأصابع يده اليسرى.. وفجأة.. دس يده اليمنى في جيب سترته القطنية، وأخـــرج ســـكينا وهـــوى بهـــا علـــى اليد المنتظرة القبلة الذلـــيلة.صـــرخ المفتش صرخة مروعة ..ورددت جوانب المكـــان أصداء أصوات الهلع من الجميع ..وهم يرون كفاً

تغطـــيها الدمـــاء تتراقص على الأرض ورجلاً يقف وسط الساحة يصيح:

- **ولكنني لم أقبل اليد !!**

-٣-

كـــان تلامـــيذ الفصـــل الأول مـــن الصف الرابع الابتدائي يتصـــايحون ويتضـــاربون..يدخل المدرس غاضبا.. صوته يزمجـــر.. كلماتـــه تـــتفجر. اختار عشرة صبيان من آخر الفصل المزدحم بخمسين غيرهم..أمرهم بالمثول أمامه خلف السـبورة السوداء.. أمسك عصاه المصنوعة خصيصا لدى نجار عجوز .. وراح يحركها أعلى وأسفل

ورأســـه يتابع إيقاعها بإيماءات متلاحقة جعلت أولهم يفهم الرسالة من خبرته القديمة بعقاب الأستاذ الذي لا مهرب من الاكـــتواء به فمد يده مبسوطة كل البسط لتتلقى لسعة العصا الحارقـــة وتلحقهـــا صرخة مسحوبة يكتمها بمجرد استقبال عينيه لنظرات جلاده النارية.

ويـــتكرر المشهد ثمان مرات.. ويأتي دوره.. يقف شامخا.. يفكـــر بســـرعة ..يلصـــق ذراعيه بجنبيه.. كفاه مضمومتا الأصـــابع.. وأســـنانه تضـــغط على الفكين..وعيناه تتسعان

وتـــبرزان من محجريهما.. يتلقى ضربة غادرة من العصا باغتته فجأة.. فيئن بصوت مكتوم.. ويستعد لملاقاة الضربة التالـــية.. لكـــنه يفاجـــئ الجمـــيع بحركة إلي الخلف تجعل المدرس الغاضب يتهاوى على أرض الحجرة المغبرة بذرات الطباشـــير البيضاء..فتتفكك أوصاله وتسقط من ثنايا جسده كثـــيراً مـــن التروس التي يقبل عليها المقهورون الصغار يســـحقونها بـــأقدامهم.. بينما ظل الصبي المقاوم صامدا في مكانه .. ونظرته تثقب أستار الأفق.



حكاية الشيخ على

نفـس الحديث يسمعه كل يوم منذ تم تعيينه في المدرسة. لكن الحديث يكتسب كل يوم نغمة جديدة!.. حينما ذهب ليقدم أوراقه إلـي ناظر المدرسة شعر أن صراعا يدور في المكان. مرت أيام. واتضحت ملامح الصورة.

بدأ يعيش أحداث القصة المثيرة التي نشأت قبل أن يأتي.

فـي مـادة اللغة العربية لم يكن بالمدرسة سواه و زميل آخر مرقـي مـن المرحلة الابتدائية كما أخبره حضرة الناظر. أما المـدرس الثالـث. . "الشـيخ على" فقد كان متغيبا في إجازة مرضـية .. إلـي هنا.. والأمر يبدو عاديا .. مدرس مريض حصـل علـى إجازة .. حقه .. لكن الأمر لم يكن كذلك .. لم يأخذ الشيخ على الإجازة المرضية إلا نكاية في الناظر.

فـي الـبداية .. لـم يكن يعرف من منهما على حق . كل ما يسمعه هجوم الناظر على الشيخ الغائب. وروايات على لسان الشـيخ يرددها زملاؤه. كلما انفرد بالناظر راح يشن هجوماً عنيفاً .. (**الأفاق .. المتمارض .. الخائن لأمانة العمل .. يأخذ الفصـل بعد المدرسة إلي منزله ليعطيه دروسا خصوصية .. لا يشرح .. ودفاتر المكتب غير كاملة و**) هكذا يستفيض ناظر المدرسة. أحس برغبة شديدة في الذهاب إلي هذا الرجل .. أن يـرى بطل هذه القصة التي يضيف إليها كل واحد في

المدرسة فصلا جديدا. توجه إلى داره مع مدرس العلوم الشاب .. لم يجداه .. عاد وفضوله يزيد. زميله يرى أن المسألة كلها تحد بين الرجلين. وأن الناظر خسر المعركة .. وكسبها الشيخ علـــى بانقطاعـــه عن العمل بسند قانوني. بينما هو يحس أن الناظر يضيق على الشيخ الخناق .. ومصمم كما يقول على أن **(يخرب بيته)** !

لـــم يكن يشعر بالتعاطف مع الشيخ .. رغم أنه زميل يدرس نفـــس المادة .. والمفروض أن يكون معه كما أوصاه بعض مدرسي اللغة العربية في المدارس المجاورة .. لكنه لم يشعر بذلك التعصب الذي يجعله يؤيد موقفه لهذا السبب الفئوي.

قابله الناظر في اليوم التالي بابتسامة عريضة ..طلب له فنجان قهـــوة .. توقع أن يحدثه بشأن الشيخ .. صدق ظنه . . نهض الـــناظر .. أحضر دفتر التقارير .. أشار بإصبعه إلي سطور كتبها مفتش اللغة العربية في إحدى السنوات بخصوص الشيخ علـــى: "**أوصـــى هـــذا الـــرجل أن يقرأ المجلات، و الصحف اليومية**"

وفـــى تقريـــر آخـــر: "**أرى أن يمـــارس الـــتجارة أولى من التدريس!**"

غريبة .. إلي هذا الحد ! إذن الناظر على حق .. وهذا الرجل يستحق فعلاً كل هذه الثورة. لم تعد لديه رغبه في زيارة الشيخ

.. مـــا ســمعه من هنا وهناك جعله يسخط عليه. حينما دخل حجرة المدرسين في اليوم التالي رأى رجلاً معمماً يجلس. تلف رأســـه (تلفـيحة) كبيرة و على عينه منظار أسود ..وفى يده عصا عاجية الرأس. حياه وجلس يرشف كوب الشاي الساخن .. أخـــرج علبة سجائره وقدم للرجل سيجارة معتقدا أنه أحد أولياء الأمور. أقبل زميل مرحباً:

– **صباح الخير يا شيخ على!**

انتـــبه.. آه .. إذن. هــذا هو الشيخ على!.. أخيراً أتى .. بعد شهرين من بدء الدراسة .. انتهت إجازته المرضية. اعتذر له عن عدم تعرفه عليه .. خرج إلي فصله إثر دق الجرس معلنا بـــدء الحصـــة الجديـــدة .. رجع بعدها إلي حجرة المدرسين يسأل:

– **أين الشيخ على ؟**

– **ذهب إلى القومسيون ليأخذ إجازة أخرى.**

– **إجازة أخرى ؟ !**

ظلت قصة الشيخ على حديث الساعة في المدرسة .. تثور في كل اجتماع.. و تدور في كل بيت! الغريب .. أن الناظر كان يـــروي أقـــوالاً عن الشيخ على .. و الشيخ على يردد كلمات نطق بها الناظر!!

كيف وصلت هذه الأخبار إلي كل منهما؟

الناظر يقول في سخرية:

- **العصفورة قالت لي !**

و الشيخ على يقول وهو يبتسم:

- **أرى ذلك في المنام !!**

كـــان الشـــاب يجد متعة في هذا الموقف الطريف الذي يحدث فـــي المدرســـة .. ممـــا خفف عليه إرهاق العمل المتواصل طوال النهار.

يخـــرج مـــن فصـــل.. لـــيدخل آخر دون راحة بسبب عجز المدرسين .. و اضطراره أن يدرس حصصا إضافية.

أوشكت السنة على الانتهاء .. لم يعد الشيخ على .. بدأ حماس المدرس الشاب يقل تجاه المشكلة التي بدأت تثير الملل .. لكن الموقـــف اشـــتعل من جديد .. أعلن الناظر في اجتماع هيئة التدريس نقل الشيخ على.

سكت الجميع .. كأنهم يدينون الشيخ على بصمتهم .. و ربما خوفا من الناظر.

فـــي اليوم التالي أرسل الشيخ على برقية إلي الوزارة يقول: **"نقلت تعسفاً . أرجو التحقيق" !!**



جريح بيكاديلي

خســـر كثـــيرا .. لـــم يبق معه سوى ثلاث بنسات ..رغبته الشـــديدة في اللعب كانت تشده إلى الآلة ذات العقرب الواحد الذي يدور حول الأرقام ويقف عند رقم معين .
أحـــيانا كان يحالفه الحظ عندما يضع النقود في مسقط الرقم الـــذي يقف عنده العقرب الطويل ..فيتساقط عدد من النقود يساوى الرقم ..وكثيرا ما كان يخسر .
اخـــتار الرقم ٧..كان صديقه ..لم يلعب عليه إلا وكسب .. هـــزته الفـــرحة حينما أضاء الرقم وتساقطت أربع قطع من الفـــتحة التـــي يجنى منها الربح ..ظن الحظ يحالفه ..جرب رقم ١٢..لم يصدق أنه كسب إلا حينما سمع صيحة إعجاب تأتـــي مـــن خلفه ،.وصوت خشن يعلن أنه محظوظ. حينما دقـــت الســـاعة العاشـــرة ..كـــان قد خسر كل قطع النقود الصـــغيرة ..لم يجد مفرا من الرجوع إلى تلك السيدة القابعة خلـــف الشـــباك الحديدي .نظرات الإشفاق في عينيها تجعله يشعر بضآلة ..لم يكن يخشى الخسارة ..بل العودة إلى هذه السيدة الرقيقة ..جعله هذا الشعور يمسك قطع النقود الثلاثة في يده ..ويحكم قبضته عليها وكأن فيها مفتاح الحياة..رمى بقطعـــة في موضع الرقم ٢٣وخسر ..ورمى الثانية وخسر

..ولــم يــبقى إلا الثالــثة .. مد يده ..ارتعاشه أمل وخوف تحــركها ..وبمـــا يكسب البنس الأخير، ويجلب حينئذ ثلاثة وعشــرون قطعـــة!.. قلــبه يخفق مع دوران العقرب حول الأرقـــام .خيل إليه أن الوقت يمر ببطء شديد.. كأن العقرب يــتعمد أن يحرق أعصابه ويتكاسل في التوقف. ود لو وجه إليه لكمة..لكن الملعون توقف أخيرا..وخسر!

– **كفاك ..خسرت كثيرا !**

تأمل وجه محدثته..همهم :

– **خسرت ما هو أغلى من المال .**

– **ماذا؟**

– **عفوا..أستمتع باللعب رغم الخسارة.**

– **لم تكسب أبدا؟**

– **نادراً.**

– **تدرب.**

– **فعلت.**

– **والنتيجة؟**

– **هزيمة!**

– **أمام الآلة؟**

– **أمام الآلهة!**

- **سياسي؟**
- **وطني.**
- **عربي؟**
- **عربي!!**
- **حزين؟**
- **حزين!**

وضعت كفها الغضة على وجنته..جذبته من ذراعه..مضت بـه خـارج صالة اللعب..لفحه الهواء البارد في الطريق.. سـرت في جسده رعدة خفيفة.. دعته إلى منزلها ..وعدها بلقـاء آخـر.. قـبل وجنتها..مضى .. إبتلعه زحام ميدان "**بـيكاديلى**"..تجمعـت علـى نظارتـه قطـرات دقيقة من الـرذاذ..هطـل المطـر بشـدة ..فـتح المـارة (المطريات)..يركضون.. رفع غطاء رأسه المشبوك في ياقة معطفـه..كـان الوحيد الذي لا يسرع ..الجميع يذهبون إلى ديـارهم..وهو..لا يريد. لم يشعر بالبرودة كما شعر بها في هـذه اللـيلة. جرته قدماه إلى حي " **سوهو**" الصاخب..كل شـيء يـبرق ويخطـف البصـر ..أضـواء ..فتـيات.. افيشات..موسيقى.. وهو شارد مع أفكاره.. يتألم.. أفاق على غمغمـة أحدهم وهو يتقى الاصطدام به. قرر الرجوع إلى

مـــأواه البعـــيد فـــي تلك الحجرة القابعة بين أحضان إحدى البـــنايات في حي "**ايرلس كورت**" الشهير بـــ"**لندن**". اكتشف أن الســـاعة تجـــاوزت منتصف الليل .. لا مفر من العودة مشياً.. لا بأس .. فهو في أشد الحاجة إلى السير، والتفكير. شـــهور في بلاد الإنجليز .. لم تبدد غربته التي حملها معه مـــن وطـــنه أيضا.. ما زال جرح الحدث العظيم ينزف في أعماقه حتى هذه الليلة.



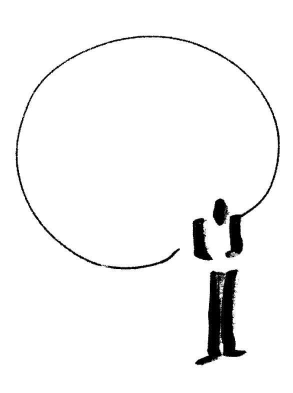
آخـــر نفـس

فـــي الطـــريق..كـــل شئ ثابت..الناس يمارسون الحركة الأبدية..نسمات الصيف تمس وجهه المبلل بالعرق.. تتسرب عبر مسامه إلي أغواره السحيقة.
رائحـــة الماضـــي تغزو أنفه.. ثمة ذكريات نائمة تصحو.. وأيـــام الطفولة المقتولة تعود. دمعت عيناه..ونظراته تلاحق صـــبياً يسابق الريح بدراجته الصغيرة حتى يختفي..ذهب.. كمـــا ذهبـــت أيامـــه البيضاء..كأنها حلم..كم تمني أن ينام ليســـتعيده مـــن جديـــد..يعـــب مـــن المـــناهل العذبة ولا يـــرتوي..يـــنكمش داخـــل جلـــده ليصبح مثل هذا الصبي الصـــغير..ويســـرع خلفـــه بدراجة لا تصل إليها قدماه إلا بمشقة.
شـــئ يشـــبه الكشـــف جعله يحس بالماضي يبعث من بين الثري..حينما أحس بيد تربت علي كتفيه..(**ها أنت يا رفيق الطفولـــة..لم تتغير..فقط تمددت عظامك وصار نصيبك من الفـــراغ أكـــبر مـــن ذي قبل..مثلي تماماً..ولكن ماذا عن أعمـــاقك يـــا صـــديقي؟ وأيـــن رست سفينتك؟**). أفاق من شروده..وهو يسمع نفس الصوت القديم:
-**ألا تعرفني؟**

وأجابه بعناق طويل.

-عــندي تصــريح ب٤٨ ســاعة فقــط..سنلتقي..حسب الظروف. وانطلق "الأتوبيس" يحمل قطعة من كيانه.

نظــر ملــياً فــي وجــه الــرجل القــابع داخــل "كشك" السجائر..تفرس في ملامحه وهو يشتري منه **(حتى أنت لم تتغــير..)** علبة السجائر تحولت في عينيه إلي علبة حلوي. حيــنما أشــعل آخــر ســيجارة..أدرك أنـــه وصـــل إلي الخــلاء..الطــريق صار قفرا..طاب له أن يركض..أسرع الخطـــى.. بدأ يقفز..أطلق لساقيه العنان..وصوت أبيه يأتيه من أعماق الزمن..يناديه..وأقدامه صارت ثقيلة فوق العجلة الصــغيرة..ورئيســه فــي العمــل يســتجوبه لأنـــه غاب يومـــاً..وصـــدي كلمـــات زوجــته يرن في أذنيه..تلاحقه بالخــناق.. صار في لحظة قذيفة في الفضاء..هوت سريعا ترتطم بصلابة الأرض فتنبجس منها الدماء..وصوت نواح يأتيه من جب عميق.



الخروج من دوائر الوهم

(انطلقــت أصوات الذئاب تعوي ..والبوم ينعب في القفار.. وحشــرة ذات الهــول السوداء تلتف بأذرعها المائة حول عــنقه..تضــغط عليه تخنقه..تكتم أنفاسه..فيحس بجفاف الريق.. يطوح بيديه في هواء الفضاء اللانهائي كالغريق. الوخــزات.. نفــس الوخزات.. أنياب وحشيه تنغرس في جســده .. تصــل حتى النخاع..فيشعر بالغوص إلى أسفل ..إلى القاع) .

– مريض غرفة ٣٠ يصرخ يا دكتور .

– أعطه الحقنة.

كــل شــيء عاد إلى السكون ..ورداء الصمت يلف الكون ويشــعر وكأنه قد عاد ثانية إلى أحضان الرحم.. وأصوات ملائكية تغنى بلا توقف.. وقناديل مضيئة تتساقط من السماء كحبات مطرية رتيبة.

("لــندن" .. كــل شيء رمادي اللون.. حديقة "الهايدبارك" تحتضــن مــئات مــن البشر.. أصوات الخطباء تعلو هنا وهناك.. وجه زنجي يصرخ.. يطالب بالمساواة.. وعلى بعد خطوات شاب أحمر اللون ..يهذى بكلمات صديدية، وألفاظ متقيحة. ومن بعيد يلمح فتاة شقراء حاسرة الثوب.. تلوح بــيديها.. كأنما أصابتها لوثة الجنون. وهو يسير باتئاد..

يتجه نحو البحيرة.. يلقاها هناك ..تنتظره حسب الميعاد.. لقـيمات صغيرة في كفها الرقيق تلقيها في الماء ..فيسرع إلـيها الـبط الوديع ويلتقطها في مرح صاخب. تسمع وقع خطواتـه التـي ترن فوق الأرض المبتلة.. فتدور برأسها الجمـيل .. تسـتقبله بوجـه صـاف كصفحة السماء في الربـيع.. وعيونها الخضراء.. كنباتات القرية البعيدة تقول الكثير، وتنهض فى خفة عصفور، ويستقر كفها الصغير فى كفـه .. وتـتعانق الأصـابع٠٠ يتبادلان نظرة.. ويطلقان سـاقيهما للريح.. يركضان في طرقات الحديقة المترامية.. كطفليـن صـغيرين فـي عالم اللاحزن. لكن أنفاس المرح معدودة ..وأجله قصير ..والحلم وهم كبير.. سراب تكشف زيفه الحقيقة..ضباب تبدده أشعة الواقع القوية .وهو نفسه كان يدرك المصير ..ويدرى أن أيامه حبلى بغده.. والغد.. يلقى به في جوف الصحراء).

- سترحل؟
- انتهت البعثة..ولابد من العودة.
- وسترجع يوماً.
- ربما.

عيناها تستحلفه أن يبقى.. قلبه تختلط فيه الدقات. يهتز ماء البحيرة بحركـات دوامية..خفيفة.. يظهر على صفحته وجه

مضـــيء كالـــبدر ..تعـــود الذكـــرى تسحبـــه للماضي ..صـــوت عمه يهدر كموج البحر الثائر ..(**ابنتي ليست لك ..سمعت.. ليست لك .**)

يحس بكيانه يحترق. لسعات النار تكوى كل ذرة في جسده.. وتنضـــح مســـامه بفيضـــان مـــن العرق المتأجج ويصرخ كالصريع. وتتفتح عيناه على وجه الممرضة ..تجفف بيديها العرق من جبهته الملتهبة.. يحاول النهوض .. تمنعه بلطف .. تـــريح رأسه على الوسادة .وتنسحب خارج الحجرة في هدوء.

- **طمنينا يا بنتي.**
- **ربنا يستر.**
- **ممكن نزوره ؟ أنا عمه!**
- **ليس الآن.**

وتلمع عين الرجل بالدموع..بينما انفلتت الممرضة مسرعة إلى حجرة الطبيب:

- **حرارته مرتفعة يا دكتور..وعاد يهذى .**
- **أعطه حقنة أخرى .**

الممرضـــة تكشـــف عـــن ساعده الأيمن تغرس الإبرة في ذراعه.

(نــافذة الحجــرة المغلقة تتسع وتتسع حتى تتلاشى.. تهــب ريح هوجاء تحمله.. تعلو به..تقذفه في الفضاء .. تظــل ذرات الهــواء تعبث به..تتلقفه ككرة تتبادلها السـيقان ..وأخــيرا يهبط على الأرض كريشة تحركها النســمات ..ســاقاه تقصــران .. يتساقط شعر شاربه الغزيــر..ينكمش الجسد المسجى على الفراش ..يتحول إلــى جسم طفل صغير يسابق حبيبة حلوة ذات ضفائر طويلـــة تــتأرجح خلف ظهرها يميناً.. ويسارا..يملآن صـــحن الـــدار بالضـــجيج..والصـــياح.. ترن ضحكات الطفولـــة البريـــئة في آذان الأهل .. فيسعدون بهاتين الزهرتيـــن الناضـــرتين ..ويحلمون بالمستقبل. يتطاول جســـده مـــن جديد.. ينبت شاربه..يشتد عوده ..فيغدو شـــابا يافعا قويا ..وتتحول الصبية ذات الضفيرتين إلى غـــادة حسناء وبذرة الحب تنمو في القلبين .. وملائكة الطهر والنقاء تبارك عاطفة الصادقين .وصوت كتغريد البلابل يعزف فى أذنه.. ويسرى في عروقه. "في أمان الله ..في الذهاب والإياب ..يا أعز الأحباب").

عندما أشرق الصباح.. كان يشعر بصداع رهيب يكاد يفتت خلايـــا عقلـــه.. أقبل الطبيب وهو يبتسم في بشاشة ، من خلفه.. الممرضة التي قامت برعايته طوال نوبة الحمى.

- **كيف حال فارسنا الهمام ؟**
- **الحمد لله . اشعر اليوم بتحسن .**
- **قريبا سندعك تذهب إلى غير رجعة!**

أعقب كلماته، بضحكة خشنة لا تخلو من العذوبة، والمرح.
ترك الحجرة بعد أن أعطى الممرضة بعض الإرشادات .
أصـــبح وحـــده في الحجرة الواسعة ..اسند رأسه على حافة الســـرير الأبيض.. يتطلع إلى السقف.. الأفكار تتراقص في رأســـه كالفراشـــات التي تحوم حول الأزهار .. يحاول اســـترجاع ما حدث في الثماني والأربعين ساعة الماضية ..آه ..هـــا هو يتذكر.. لقد ذهب إلى عمه بعد صلاة العشاء .. انـــتظر حتى انصرف الضيوف من المجلس .. صارحه أنه ما زال يتمنى الزواج من ابنته..
كان يظن أن عمه سيقبل هذه المرة .. خصوصاً بعد عودته موفقـــاً مـــن بعثـــته في "**إنجلترا**"..لكن الرجل ازداد قسوة ..ومـــازال يقـــف حـــائلا دون ســـعادتهما.. وأحلام العمر الوردية.

في هذه المرة لم يرفض دون ذكر الأسباب..لكنه وضع في طــريقة صـــخرة عاتـــية اسمها المهر..وأنى له هذا المبلغ الضخم، وهو يخطو خطوته الأولى في الحياة العملية؟
عــندما خـــرج مـــن بيت عمه ..كان الليل قد أسدل ستائره الســـوداء علـــى الأرض .. لكـــن أعماقه كانت أشد عتمة وقتامة .. ظل يدور بسيارته في الطرقات التي أغرقها مطر الشتاء .. كانت الرياح تصفر بصوت كالنواح..كأنها تعزف لحـــن الأحزان ..عاد إلى الدار ومطارق تدق رأسه بقوة. ألقـــى جسده المنهك على الفراش. و..لا يدرى ماذا حدث غير ذلك ..ولا كيف انتقل إلى المستشفى .. من الذي حمله إلى هنا ؟.. لا يدرى.
صوت أقدام تقترب.. الممرضة أقبلت.. حان موعد الدواء .

- **ألم يأت أحد لزيارتي؟**
- **موعد الزيارة في المساء..وسترى كل أحبابك. الآن هات يدك لتأخذ الحقنة. بالشفاء إن شاء الله.**

هـــزه الشـــوق إلـــي فتاته ..ترى هل يراها ثانية ؟ أم كتب علـــيهما الفـــراق إلي الأبد لم يكن يدرى أنه يحبها كل هذا الحـــب ..سنوات الغربة جعلته يدرك أن حبه لها أقوى من الزمن والمسافات..وقد صور له الوهم في تلك الأيام البعيدة أن بإمكانـــه الزواج من زميلته الإنجليزية الفاتنة..لكن قلبه

كان مشدوداً إلي حبيبة من بلده .. يراها دائما بعين الخيال.. تحـيا معه تحت سقف واحد.. في دار صغيرة تعبق أركانها أنفـاس المحبة ..وترن في صحنها ضحكات الأطفال الحلوة ..أتى موعد الزيارة.. كانت أمه تنتظر قبل الموعد بساعات ..ألقـي برأسه في حضنها الحنون .. لم يلبث ..أن أفاق من غفوتـه الطفولية على صوت نحيب مكتوم ..فرفع رأسه.. غـير مصـدق .. إنها هي ..ابنة عمه الحبيبة.. في عينيها نفـس الـنظرة الآسرة التي سلبت عقله ومشاعره منذ زمن بعـيد .الـتقى الكفـان يتصافحان.. بل يتعانقان.. يلتصقان لحظات.. وينتبه الحبيبان الصغيران إلى وجود الأم الرءوم فيسحب كل منهما كفه في حياء. وينظر إلى أمه ..فيجد على وجهها ابتسامة بيضاء تشع بالطيبة والعطف. تمسك الأم بيد إبـنة عمـه.. وبـيدها الأخرى تمسك يده.. تبارك حبهما العفيف.. تتمنى لهما السعادة والهناء.

تذكـر عمـه.. سامحه الله.. لقد تحول إلي عبد للمال.. كل شـيء لديه له ثمن.. حتى ابنته.. لا يرى فيها سوى سلعة كغيرها من السلع التي يتاجر فيها ويربح آلاف الريالات.من خـارج الحجـرة .. سمع صوتا يسأل عن رقم حجرته.. لم يصدق أذنيه.. صوت عمه ! .. ها هو أمامه .. حقيقة وليس وهمـاً .. إنـه يبتسـم!! لعلها المرة الأولى التي يراه فيها

مبتسماً..اقبل عمه عليه .. جلس على جانب السرير.. يداعبه بكلمات رقيقة.. كأنه إنسان آخر غير الذي حطم سعادته وسلبه الأمل في الحياة. صوت عمه يتهدج.. يبدد شروده .. يعيده إلى الواقع.

- **سامحني يا بنى ..لقد أخطأت فى حقك ..بل في حق نفسي.. كنت أظن المال كل شئ في هذه الحياة .. حتى يوم أمس .. عندما خسرت مبلغا باهظا هو معظم ما أملك من رأس مال .. أدركت حينئذ أن المال يذهب ويأتي .. أما الإنسان .. فهو أكرم مخلوقات الله ..وليس سلعة تباع وتشترى.**

توقفت كلمات الشيخ .. سالت دمعة كبيرة على وجنته.. لكنه تمالك نفسه .. هب واقفا .. اقترب من الشاب العاشق ..أمسك بيده.. ضغط عليها ضغطة أودعها كل مشاعره الأبوية الصادقة.. قال ونظراته تتنقل بين الحبيبين الصغيرين:

نحن في انتظار خروجك بسلامة الله ..لتحدد معنا أسماء المدعوين إلى حفل العرس!



الكـــارثة

مـــر الليل طويلا، ثقيلا. ضوء النهار يظهر .. يلف الكون بردائه الأبيض. "الراديو" يصفر. نور الشمس يغمر المكان. يحس أن ضوء عينيه يخبو.. الدنيا قاتمة .. شئ يكاد يفجر صـــدره .. ينهض متثاقلاً.. يجر رجليه.. تناول الجريدة من تحت الباب .. عيناه علي العنوان الأحمر.. قلبه يدق بعنف.. تهـــاوى علـــي أقـــرب مقعد.. صدقت إذاعة "لندن".. وقف إطـــلاق النار. **(هي النهاية إذن .. الدموع تتجمد في عيني .. الدمـــاء تهرب .. أبصرُ وجهي في المرآة مصفراً كميت .. كـــأن عقلي توقف .. قدرتي علي التفكير تلاشت .. ما زلـــتُ أذكر .. اندلعت الحرب بين العرب وإسرائيل .. كنت أعلـــمُ أنهـــا آتـــية لا ريب فيها .. قالوا: تدمير إسرائيل، وتحقـــيق النصر .. النصر!!)**. دموعه تسيل .. **(هزيمة .. هزيمة!)** سار كالنائم .. ذاهلاً كالتائه .. ارتدى ملابسه في فـــتور .. مضـــى نحـــو الباب ..ماتت خطواته حينما سمع صـــوتها الحنون .. أمه تدعوه للإفطار .. رأسه يختلج يمينا ويسارا. مضى تحو الطريق .. ضاع في الزحام.. **(يسيرون**

فـــي وجوم .. رؤوسهم تتدلى علي صدورهم كأنما أثقلتها الأفكـــار، والهواجـــس، والهمـــوم). الناس.. الأصوات .. العربات .. صخب الباعة ... سيمفونية كئيبة. أين يذهب؟.. لا يدري .. فقط يريد أن يسير . ينظر إلى الناس .. يحتمي بهم .. يذود عنهم. وقف في محطة الحافلات .. التفت نحو اليميـــن .. بـــائع الجرائد يفترش الأرض .. الصحف فوق الرصـــيف. أشـــاح بوجهـــه. لكنه قرأ الخبر المشئوم علي الوجوه.. العيون شاخصة في الفراغ .. شاردة في صحاري المجهول. أقبلت السيارة .. هرول الجميع .. يتدافعون بغير وعـــي . انحشـــر وسط الأجساد .. مضت السيارة المتخمة تشـــق طريقها في فتور.. شمس يونيو الحارقة تلفح الركاب .. تـــزيد مـــن ضجرهم المكتوم. الجميع صامتون. سكون غـــير معهود. اختفت المشادات الحامية التي يسببها الزحام، وارتطام الأجسام.

همهمـــات وأحاديـــث خافتة. في مقاعد الدرجة الأولى رجل بديـــن يـــرتدي ثيابًا فاخرة مستوردة يضع ساقه الثقيلة فوق

الأخرى، ويحملق في الجريدة، ويهمس لجاره وسيجار يتدلى من جانب فكه:

- **هو إحنا قد أمريكا؟**

التقطــت أذنــاه الكلمات .. هز رأسه في أسى.. لم يلبث أن انتــبه لمــا يدور في آخر السيارة .. رجل ملابسه ذات بقع جيرية يؤكد لزميله في يقين:

- **دي خطة.. وقف النار ده خطة.**
- **أيوه .. روسيا معانا.**
- **والحل ؟؟**

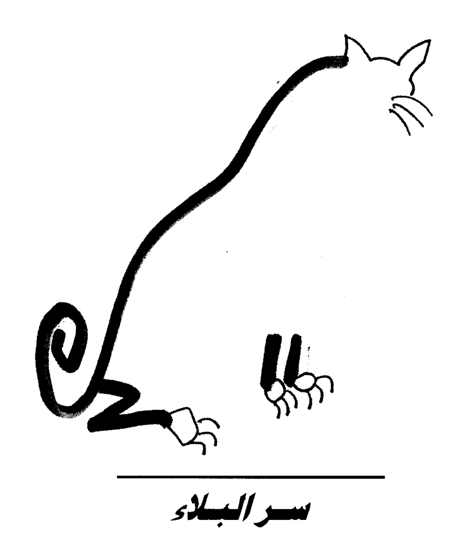
صاح شاب مخاطبا صديقه الشارد.

- **لا أدري.**

زفيرا ملتهب .. تتناثر الكلمات .. تربط الجميع بشعاع غير مرئـــي.. يغزو أعماقهم..يصهر كيانهم فيصبحون حقا الكل في واحد. توقفت السيارة.. لا يدري أين هو.. نهاية الخط.. بقي في مكانه..عادت السيارة تبتلع العشرات..تمتلئ بالناس، والأنفــاس المخــتلطة بالكلمــات. نفــس الكلمات، ومرارة الحلوق.

عـــاد إلي البيت..ألقي بجسده فوق الفراش..ظل ساهرا حتى أتاه صوت أمه الطيبة:

- **النـهار طلـع.**
- **لا يا أمي. لم يطلع النـهار بعد.**



سر البلاء

مـــاذا يحدث؟. ولم تمسك بي صاحبتي بهذه الطريقة؟..حقاً إنهـــا اعتادت أن تمر علي جسدي بلمساتها الحانية، وتتخلل أصـــابعها شـــعري الـــناعم وكأنها تدلل طفلاً صغيراً..لكن ســـلوكها الـــيوم يبدو مختلفاً..هناك سر وراءه..ها قد صدق حدسي..عيناها تشعان ببريق خاص.. نظراتها تفيض بمزيج من مشاعر الحب والإشفاق.

تحسســـت بأناملها كتفي الأيمن..وانزلقت إلي ما تحت الإبط لتســـتقر فوق ذلك الورم الغريب الذي ظهر في هذا المكان من جسمي منذ أيام..رفعتها بسرعة. راحت تحيطني بكفيها وتحملنـــي بهـــدوء..تدفـــع بـــي داخل حقيبة جلدية..تغلقها بإحكام..لا يبقي بها منفذ سوي فتحة صغيرة تسمح بالتنفس لا تكفـــي لكي أخرج هارباً من هذا السجن. ها هي تسلمني لإبـــنها، فـــيخرج بي إلي الطريق الذي أراه لأول مرة منذ تفتحـــت عيـــناي. دقات قلبي تزداد..أنفاسي تتلاحق..كياني يرتجف فأموء بشدة. لا أفهم شيئاً مما يدور حولي..المشاهد تمر أمام عيني متعاقبة..بعضها مألوف لي..رأيت مثله علي واجهة ذلك الشئ الموجود فوق المنضدة الخشبية في حجرة الاستقبال..والذي يضئ في بعض الأحيان وتظهر فيه صور عديـــدة أعـــرف ما يعنيه بعضها..والبعض الآخر مجهول

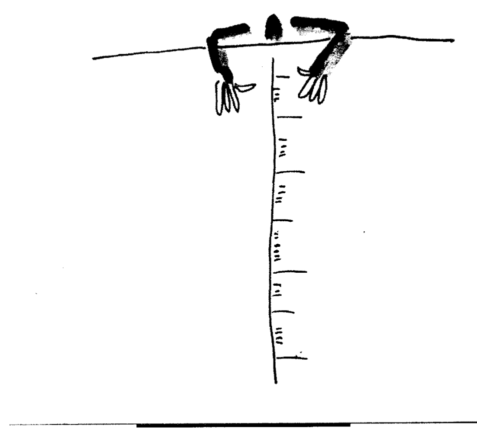
لـــي..لكنني أعرف بخبرتي بعض المعلومات والأشياء التي تـــتحرك أمامـــي كلمـــا قامت صاحبتي بتشغيل ذلك الجهاز الســـحري..كمـــا أعرف أشياء مثيرة أتعلمها من الأحاديث الطويلـــة التي تدور كل يوم بين سيدتي، وأولادها، وبناتها، والضيوف الذين يزورونها..إنني أجلس هادئاً في ركن غير بعـــيد أستمع..أنقل نظراتي بينهم..لا يخطر ببالهم أبداً إنني أفهم، وأكتسب منهم الكثير مثل الأسماء، والأشياء، ودلالات الأفعال. بل أن قدراتي تفوق ذلك..فبإمكاني التواصل مع من أحب بطريقة خفية لا يدركها إلا من أحبني مثل ابن سيدتي الـــذي أقبع أمامه كل ليلة وهو يجلس علي مكتبه..أحدق في عينيه، وأنقل إليه أفكاري..فلا يملك البعد عن القلم والكتابة.
أشـــار صـــاحبي بيده إلي شئ يسير بأربع عجلات يحرص الـــناس ألا يصدمهم..وبيده الأخرى الحقيبة التي وضعوني فـــيها..أتطلـــع ببصـــري من ثغرة ضيقة فأري بوضوح ما يجري بالخارج.
أنـــا وصـــاحبي الآن داخل هذا الشئ الذي عاد يتحرك من جديد بيد رجل كهل لم يكف لحظة عن الكلام. مددت عنقي إلـــي أعلـــي..رفعـــت رأســـي نحـــو فتحة الحقيبة محاولاً الخروج..لكن يد صاحبي أعادتني كما كنت..اكتفيت بالنظر

فــيما يجري في الطريق..وخصوصاً ما يخطف بصري من مشـــاهد تثــير في نفسي بعض الحيرة..وأولها صورة رجل مبتســم أسود الشعر يرفع يده..لا أدري لماذا شعرت بالملل مــن تكرار هذه الصورة علي الجدران والأعمدة..تمنيت أن أري صـــورا مخــتلفة..مــثل وجوه هؤلاء الرجال والبنات المارة في الطرقات.

من مكمني..رأيت أيضاً أشياء تشبه المكان الذي أجد نفسي فــيه الآن..لكــنها أكثر طولاً وألوانها متنوعة..وفيها رجال ونســاء يــرتدون ملابــس تشبه ما يرتديه الذين أراهم في الصــندوق الســحري المضئ.. في الطرقات أري أمثالهم يســيرون هــنا وهــناك..لكــن بعضهم لا يرتدي مثل هذه الملابــس..بــل ثياباً قديمة تشبه التي تعطيها سيدتي للبواب العجوز.

بعــد وقت أطول من الوقت الذي أقضيه في تناول طعامي المفضــل مــن يد سيدتي..توقف هذا الشئ العجيب الذي لا أعــرف له اسماً..وجدت نفسى في الطريق من جديد..الآن أرى شــيئاً يعــوق الداخليــن..الحــارس يشير إلينا..يتبعه صــاحبي..يرقدوننــي..يأتي رجل يرتدي ثوباً أبيض.. يمر بأصــابعه علــي الــورم..يكتــب شيئا علي ورقة صغيرة

أمامــه..يعطيها لصاحبي..غادرنا المكان..اتجه صاحبي إلي موقع جديد..يدخل..يقدم الورقة لرجل آخر فينظر حوله..ثم يمــد يــده ويتــناول زجاجة.. فيها مادة بيضاء..لم يصبر صــاحبي حتى نعود إلي المنزل..فتح فمي..وضع قطرات اســتقرت في حلقي وهو يهمهم بلغة مختصرة تعودت علي ســماعها..ينصحني ألا أقاوم بلع ما يضعونه في فمي حتى يتم شفائي..وتفرح بي سيدتي، وتعطيني كالعادة أحلى نظرة رضاء.



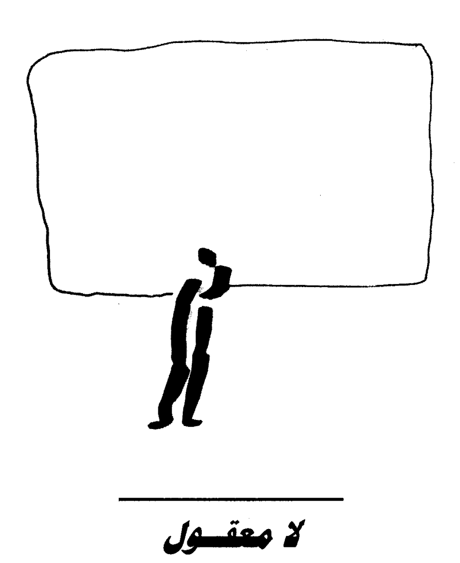
انتشال

نيران الغيظ تشتعل في أعماقك..لكنك عامدا متعمداً لا تبحث عن ماء الإطفاء..تكتوي بمشـــاعر الغضـــب..ولا تصـــيح ساخطاً كالعادة..تؤثر الانتظار..في رأسك فكرة تدور وفـــي قلبك قرار. هذا الكائن المنشطر من جسدك لم يعــد يجــدي معه محاولات التطويع..وأي مواجهة منك لن تعود عليـــك بالنفع. معضلتك القديمة هي ســـر عــذابك الآن..وصـــديق عمرك كان يذكرك دوماً:

– **لن يقيموا لك تمثالاً!**

تحتج بأنك تؤدي الواجب الأزلي.. يسخر منـــك.. يـــدعوك للنزول من البرج.. تفترقان دون إقناع. أنفاسك تكـــل مـــن جذب ذرات الهواء.. ينتابك بعض الدوار.. تعزف نفسك عن طلب العون من ذلك اليافع المزهو بالوهم. أنت قادر علـــي انتشال جسدك من تحت الجدار المتهدم دون عون ســـواعد الفتي المستنسخ من سويداء قلبك. تمضـــي وحـــدك نحـــو الفراش..تمسك جسدك في رفق لتميل حتى تلمـــس رأســـك الوسادة دون أن تدور الحجرة بك..وتنجح في إيقاف حركة المحور المتصل بالجدران الأربعة..ولكنك تعجز عن دفـــع الملاعـــق والأكـــواب..والأوانـــي اللزجـــة مـــن بقايـــا

الطعام..والأكياس الممتلئة بقشر البيض والموز..والبصل..والأغلفة السلوفان..وأعقاب السجائر..والجوارب العفنة..وشفرات الحلاقة..و..أشياء كثيرة تفزعك..ولا تفهم حقيقة ما يجري إلا بعد نوبة الصحيان.



لا معقـــول

السابعة صباحاً .. كما اعتاد كل يوم .. ينتظر الأتوبيس .. شئ غير مألوف شد انتباهه جعله يشعر بالحيرة .. المحطة شبه خالية!!.. لا أحد ينتظر سوي رجل مسن يحمل عصاه، وجـــريدته.. شابان يتهامسان .. فتاة شقراء ممشوقة القوام. أقــبل الأتوبيس .. دهشته تزداد يصعد دون أن تسحق قدمه الأحذيـــة الثقــيلة!.. تتراقص علامات التعجب أمام عينيه. المقـــاعد خالية .. من حقه اختيار المكان الذي يعجبه بجوار الـــنافذة ليستنشـــق هواء الصباح المنعش!.. رأسه يدور .. يضـــطرب .. مـــا يـــراه محير. يكاد ينكر علي نفسه هذا الإحساس بالآدمية الذي لم يشعر به من قبـــل.

أمس .. في هذا الوقت كان مصلوباً داخل نفس السيارة يكاد يختنق من الزحام، وحرارة الأنفاس، وعرق الأجساد. رغم أنه كان يوماً بارداً ممطراً من أيام الشتاء القاسية.

ابتســـم وهو يتذكر حاله عندما قفز من الأوتوبيس الذي كان يـــنوء بحملـــه. تملكـــه الغيظ عندما أبصر طرف "بنطلونه" ملطخـــا.بالطيـــن العالق بنعال الأحذية! هرول خجلا حتى وصل مقر عمله قاصدا الحمام .

(خمس محطات .. الأتوبيس مازال خاليا .. ماذا حدث بين الأمس واليوم؟ لابد أنهم استوردوا ألف أوتوبيس جديد ..

هكـــذا في لحظة تحدث معجزة .. مستحيل ! ربما نمت مثل أهـــل الكهـــف .. وأنا الآن في زمان آخر ..) لسعه الهواء الـــبارد المندفع من النافذة .. أغلقها. **(نفس النافذة ..نفس الأوتوبيس .. هو بعينه أوتوبيس الأمس، والمحصل .. ذلك الـــرجل البديـــن بنظارته السميكة، وإطارها الأصفر القديم. هو .. !!)**

صداع ينتابه .. ما حل هذا اللغز؟

كيف حدث هذا التغير ؟!

خطـــرت له فكره .. لماذا لا يسأل جاره في المقعد المجاور ابـــتلع ريقه أكثر من مرة قبل أن ينطق .. لكنه أحس بحلقه يجـــف والكلمات تموت. خشي أن يصبح موضع سخرية . آثر الصمت.

....
....
....

اقترب الأوتوبيس من ميدان التحرير. الآن امتلأت المقاعد. والواقفون أيديهم معلقة تمسك بالقوائم المعدنية دون أن تلتحم أجسادهم كعادة كل يوم .

نـــزل من الأوتوبيس .. أسرع الخطي **(حتى الزحام اختفي أمـــام المجمع)** مازال يشعر بالذهول والعجز عن تفسير هذا الغموض الذي صادفه منذ الصباح ..!



ولد اسمه مكرم



- **يا أستاذ..يا أستاذ!**

توقف عند منتصف الجسر..التفت ..

- **مكرم!**
- **أنت نسيت يا أستاذ؟**
- **نسيت إيه؟**
- **وعدك!**
- **أي وعد؟!**
- **تاخدني معاك أتعلم فى مصر.**

أطلق الأستاذ صوتاً يدل علي التذكر..وضع الحقيبة علي الأرض..أسند ظهره علي سور الجسر الباهت.. حدق فى الصبى.

كانت عيناه تنتظران جوابه كقط شقي سجين ينتظر فرصة انفتاح الباب لينطلق هارباً!

- **عاوز تسافر معايا؟**
- **أيوه يا أستاذ!**
- **افتكرتك بتهزر!**
- **لا كنت بكلمك بجد.**
- **ووالدك؟**
- **موافق.**
- **مش معقول.**
- **تعالي كلمه بنفسك.**

(يبدو أنه قد رتب كل شئ، وأعد نفسه فعلاً للرحيل معي!).

امتدت نظراته إلي منتهى الطريق الرئيسية..عرجت علي المنعطف الذي يقع بعده مسكنه الذي أستأجره منذ قدومه للعمل مدرساً بهذه القرية .. تذكر كيف بدأت معرفته بمكرم.. وكيف أصبح يتردد عليه كل يوم بعد عودته من المدرسة ليشتري حاجته من السوق..كان يرثي لفقره ويحترم كبريائه. بعد آذان العصر كان الأطفال ينطلقون في الطرقات والدروب..يلعبون..ويمرحون..أما مكرم..فلا يبرح مكانه في كوخ والده العتيق..أو "الغرزة" كما يسميها الأهالي. كان يساعده في عمل الشاي والشيشة..لكنه يختلس بين الحين والآخر بضع نظرات نحو أقرانه الذين يملأون المكان بضجيج اللعب..يتمني أن يكون بينهم.. يغبطهم أيضاً على الذهاب إلى المدرسة. يفيق من أحلامه علي صوت ينادي:

- **يا مكرم!**

كان ينتهز فرصة ذهابه إلي البقال لشراء الشاي أو السكر..فيبقي بضعة دقائق وسط الأولاد..يختطف الكرة من أحدهم..يركض بها..يظل يحاورهم بعض الوقت ثم يفطن إلي أنه قد تأخر..فيلقي بها إليهم..يستمر في الركض متجهاً نحو الغرزة.

تذكر خدمة مكرم له طوال عامين..وأمانته، وإخلاصه.. عزم علي أن يلبي رغبته في الذهاب معه.. فهو يحتاج إلى من يؤنس وحدة أمه فى غيابه ويشترى احتياجاتها.. وفى نفس الوقت يتمكن من إعادته إلى التعليم.

- **إيه رأيك يا أستاذ؟**
- ....

- **أستاذ!!**

أنتبه علي صوت مكرم ورد علي الفور:

- **موافق..نرجع نكلم والدك.**

أختطف مكرم حقيبته الساكنة بجواره علي الأرض..ومشي أمامه بل كان يقفز كقط سعيد!

هاهو مسكنه سابقاً..كل شئ يسير سيره المعتاد.

وأبو مكرم يلمحه قادماً مع ابنه من بعيد..يقف..وعندما أصبح أمامه يسأله مندهشاً:

- **خير يا أستاذ نسيت حاجة؟**
- **لا.. فيه موضوع.**

عاد ثانية إلي موقف السيارات ليستقلا السيارة إلي القاهرة. ظهرت مشارف العاصمة..كانت نظرات مكرم زائغة.. شعور ما يتمدد في كيانه كلما وقع بصره علي شئ.. الزحام ..السيارات..النساء..البنات..لوحات الإعلانات والأضواء المتعددة الألوان. عالم جديد يراه لأول مرة..يفوق كل ما صوره له الخيال .. أخيراً .. وصلت السيارة إلي نهاية المطاف .. نزلا إلي الطريق.. ركبا الأتوبيس. دس مكرم جسده الصغير بين الركاب..ظل يقاوم حتى وصل إلي مكان قرب النافذة. كان يتطلع إلي الطريق.. فمه مفتوح.. عيناه تتنقلان بين كل المرئيات..لكنه يجزع فجأة..حينما يتذكر الأستاذ..يبحث عنه بين الوجوه.. أخيراً يعثر عليه قرب الباب..يسرع نحوه..كأنه يلوذ به من الضياع. ضغط جرس الشقة..فتح الباب علي الفور..الأم الحنون تنتظره منذ الصباح..لكنه هذه المرة ليس بمفرده. قبل أن تتساءل حكي لها كل شئ عن الضيف الصغير القادم من أعماق الريف.

أرشدت الأم مكرم إلي الحمام ليغتسل..ويبدل ملابسه..ثم أعدت العشاء لثلاثة. لكن الولد رفض أن يتناول لقمة واحدة. جلس منكمشاً فوق الكرسي الوثير..عيناه تتجولان في أركان البيت، ونظراته تفيض بالغربة. **(أنا فين؟..أبويا وحده فى البلد..فين صحابى؟؟ والبت ليلى .. لازم أرجع..... ولا أستنى شويه؟ مصر حلوة.. وأنا لسه ماشفتش منها حاجة..البيت ده كويس والست أم الأستاذ طيبة.. بس أنا زهقان وعايز أروح).**

يلمح الأستاذ دموعا تلمع في عيني الولد..تبدو علي وجهه أمارات الدهشة.

- **مالك يا مكرم؟**
- **عاوز أرجع بلدى.**
- **ليه؟**
- **والنبى يا أستاذ.**
- **حصل حاجة؟**
- **لا.**
- **أنت إللى صممت تيجى؟**
- **سامحنى يا أستاذ.**
- **والتعليم؟**
- **حاتعلم هناك.**
- **طيب..خليك للصبح.**

عندما أشرقت الشمس..وجد نفسه في محطة القطار يقف أمام شباك الوجه القبلي.. يمد يده إلي الموظف الجالس خلف النافذة ذات القضبان الحديدية:

- **تذكرتين من فضلك!**



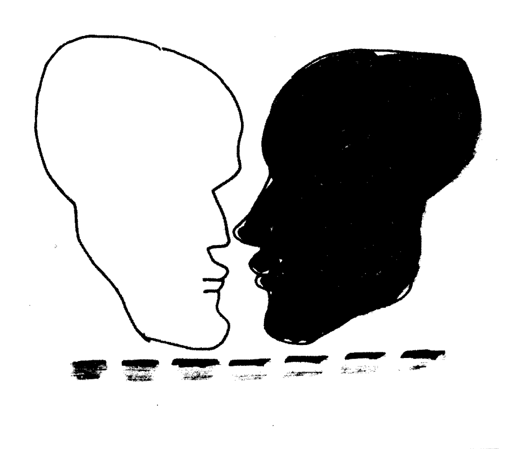
آخر مترو

ها هى خفقات قلبك تتنامى فى أعماق مشاعرك الأزلية.. تستحيل أذرعاً قوية تدفعك إلى آخر عربات المترو.. كم جعلتكما الصدفة تقفان وجهاً لوجه فى دهشة طفولية.
الليلة تركتك بعد رنة هاتفها المحمول..عندى عمل مفاجئ.. ينتظروننى.. سأعود.
يتدلى من لسانك حبل يتلوى متجهاً إلى جسدك..يكاد يلفه عدة مرات.. بينما علامات الاستفهام تتراقص فى غياهب عقلك.. لون داكن يصبغ قلبك.. فجأة.. تنتبه قبل أن تقفز أول علامة استفهام لتصطدم بوجهها الغامض..تبتلع ريقك فينجذب الحبل إلى داخل حلقك كمقياس دائرى مصقول!
تومئ برأسك راضياً عن الفراق الجبرى.
تذهب بعيداً عنك.. تتأخر.. تتنابك الهواجس.. تنقر أرقام محمولها.. لا ترد.. الجرس يرن.. لا جواب.

- **أنت وحدك تمتلك مفتاح اللغز.**
- **أى لغز؟**
- **نفسك**
- **أعرفها**
- **لم انتظرت؟**
- **ما ظهر كوكبى الدرى**
- **لا تبحث عن سراب**
- **أهو إعلان فراق؟**
- **لا.. ولكن ....)**

بترت جملتها بسكين النهوض.. وعدتك بالعودة.. ما عادت.

التليفزيون أمامك.. كثيرون حولك.. تحملك مشاعر الافتقاد إلى بغداد.. الدماء.. الجثث المتعفنة تنزلق من الشاشة الملونة.. يمتلئ المكان برائحة غريبة.. بعض الرفاق يقتحمون الشاشة.. يذهبون إلى ديار النجف.. الموت للأمريكان.. جيفتهم النتنة تلوث ماء النهر..
تكتشف أنك مستهدف.
المظاهرة الكبرى فى الميدان الواسع.. شموع كثيرة تضئ.. هتافات جماعية متفرقة.. عيناك تبحثان عنها.. تحتفظ فى يدك الأخرى بشمعة.. تقبض عليا .. كفها! .. العسكر بعيدون.. قبل أيام كانوا يلهبون ظهورنا بالعصى والبلطجية.. ها أنت تلمحها.. تشرق ابتسامتها من جديد.. تتوالى الدقات فى حنايا عقلك.. تناديها.. لا تجيب.. لا تسمع.. تتجه نحو الرصيف.. شاب طويل القامة يتقدم نحوها.. يمد ذراعه تتكاثر فى لحظة.. عشرات الأصابع مشرعة تدور حولها.. تحيط بها.. هى وسط الدائرة .. تلف فى انتشاء.. ترمقك بطرفة عين.. تتجاهل يدك الممدودة.. تحجم عن دفعك بعيداً عن شفا الحفرة.. تنزلق قدمك.. تشعر أنك فى قاع تقطع ظلمته توهجات لونية ساطعة. وصوت يأتيك صدى ينادى (أى طبيب أو طبيبة على وجه السرعة).



صراع الثلج واللهب

كلمــا نظر إليه .. أشرقت في وجهه ابتسامة لا يلبث أن يطفــئها شرود حزين. **(مرت الأيام .. وصراخ الطفل في المهــد تحــول إلي كلمات لطيفة..عندما يناديني باسمي مجردا من أي لقب تسرى في قلبي رعشة غريبة..أخيرا أصــبحت "بابــا"..بعــد أن كنت أردد هذه الكلمة..ها أنا أسمعها !!)**

- **أنت بتذاكر "جرنان" ؟!**

أفاق من شروده..رفعه بين يديه.. قبل وجنته دامع العينين.

- **أنت بتذاكر "جرنان" يا بابا؟**

أجابة متهدج الصوت :

- **أيوه يا حبيبي.**
- **احك لي يا بابا.**
- **أحكي لك إيه؟.**
- **كلام "الجرنان".**

(مــاذا أقــول لك يا صغيري.. ليتك تفهمني إذا رويت لك المأســاة. الدماء في كل مكان..وحش قزم ذو عين واحدة تحيط بها بؤر صديدية متقيحة..ولسان نار يتدلى من فمه المفــتوح تنبعــث مــنه رائحة كريهة..يقتنص بأصابعه

المســحوبة المســنونة طفــلا اســمه "كــنعان"..يسحب شــرايينه.. يمــتص دمــاءه..لا يــرتوي..أطفال كثيرون يــثورون لمقــتل صــاحبهم..يتقدمون نحو القزم القمئ بغضب..يقذفونه بالحجارة..يبتعد قليلا..بصوت كريه ينادى بقــية الأقزام..يمتصون دماءهم..وتستمر المعركة طوال النهار..وتتجدد مع بدء أشعة الشمس..لا الأقزام الوحشية تشــبع مــن شرب الدم.. ولا الأطفال يتعبون من رجمهم بالحجارة..)

- يجب الذهاب إلي الطبيب اليوم.
- ....
- سامعني؟!

(أمي كانت تقول: الضنا غالي..وأبي كان يؤكد لي..يا بني محدش يحب حد يكون أحسن منه غير ابنه. مات أبي قبل أن يــري الحصاد..تري هل أعيش حتى أراك يا بني أحسن مني؟..هل..؟).

- لم لا ترد..اليوم موعد الطبيب!
- آه..طيب..طيب ..نروح.

(خمــس ســنوات ســرقها الزمن من عمري..الجذوة في أعماقــي لا تخمــد هــاتف غامض يدفعني لوداع تلاميذي

الأربعين المحشورين داخل حجرة صغيرة..جذوة في أعماقي لا تخمد أبدا..أحساسي بالغربة يتزايد مع الأيام..و...)

- **ميه.. أشرب يا بابا.**

نهض.. صب للصغير كوبا من الماء..يجلس في مكانه..أشعل سيجارة جديدة **(الأرض تحت قدمي كأنها رمال متحركة تسحبني إلي جوفها..روحي تبحث عن الطريق إلي البلاد المحجوبة ..)**

- **أنا تعبانه جدا .**

- **هانت يا حبيبتي.**

(عادت تعاني الأم الحمل من جديد..ليتني أتمكن من مشاركتها الآلام..طفلنا الأول جاء قبل موعده..لكن الحمل هذه المرة طال..).

انتبه إلي صوت طفله الصغير وهو يشير بإصبعه إلي رأسه صائحا :

- **بُم بُم!**

حمله بين ذراعيه..أجلسه بجواره عند ركن اللعب..وعاد إلي مقعده يتثاءب.

(كـل شئ جمدته ثلوج الزمن..لكن الجذوة في أعماقي لا تخمـد..روحـي تـنفخ فـيها..تلهـبها، فتذيب جزءاً من الثلوج..لكنها تتراكم من جديد..وينتصر الجليد علي اللهب. كـرات الـثلج تتسـاقط في أغواري..من نوافذ السيارات المـزدحمة بالركاب..من ثقب القلم الأحمر الذي أصحح به كراسـات تلاميذي..من عيون الصراف الذي يضع في يدي كـل شـهر بضـعة جنـيهات تتـبخر فـي أيـام..زملاء العمـل..القاضـي..المحامي..الموظف الجالس خلف مكتبه كالطـاووس..أقاربي وجيراني..الجميع يحملون في أيديهم كـرات مـن الثلج يلقونها في أعماقي..يطفئون بها ألسنة اللهب..لكن الجذوة باقية لا تخمد.)

أفـاق مـن غفوتـه..ألقـي علـي المكـان نظرة نصف دائـرية..أمسـك علـبة الدخـان..لـم يـبق إلا سيجارة..يشعلها..يضغط العلبة بين أصابعه..تتحول إلي كرة مـن الـورق..يلقيها في السلة بقوة فتحدث صوتاً يشد انتباه الصغير الذي كان يرقبه فيتقدم نحوه صائحاً:

- **وأنا كمان سجاير!**

يبتسم..ويرمقه بنظرة حانية يشع منها أكثر من سؤال.



التيـــه

تشــبثت يــداه بعجلـــة القــيادة..التفــت أصابعه حولها في تشــنج..ضاعف من سرعة السيارة حتى بدت وكأنها تطير فــوق الطــريق..غطاء رأسه الأبيض يكاد يفلت من تحت العقــال..يتطاير بضربات الهواء الذي يشقه بسيارته كمارد من الجان يركض في جنون. أنفاسه تتلاحق..دقات قلبه تعلو علـــي محرك السيارة الهادر..دوي الكلمات في أذنيه يتحول إلي أسياخ من الحديد المصهور تنغرس في خلايا المخ فتهتز في عينيه المرئيات..ويستحيل كل شئ إلي ضباب.

الإحســـاس بالقهر نصل حاد يمزق كيانه..يلقي بأشلائه في الآبـــار الآســـنة. يموت كل شئ فيه..وتبقي عظام أصابعه تقــبض علي عجلة القيادة..الشئ الوحيد الذي يملك السيطرة علــيه..نقطـــة تلمـــع وحيدة في بقعة الإدراك..تتجمع فيها الأصوات والمرئيات..تفور كفقاعات الغليان.

الأم العجوز تقبع في الدار..تغلق الحجرات بالأصفاد..وكل غــبار الزمن يتجمع بين الجدران. و"المجلس" العتيق أصابه الهــرم..ورائحة الدهر تنفذ من "المساند"..تحمل معها أنفاس الأب الثاوي تحت التراب منذ الأزل.

(يــا أمي..كل شئ أصابه البلي..لون الجدران الباهت يغزو العــيون بالكآبــة....كــل شئ يحتاج إلي تغيير..و..تموت كلماتــي..تصــرخين فــي وجهــي: إنه بيتي.. أرحل إلي الآفــاق..أجد نفسي بين جدران حجرة بعيدة..أمتلك الحياة فــيها..وحــدي..وتصــرخ نــداءات الكينونة من أعماقي: إنهــا بيتي!. تمر الأيام. نظرات الدهشة في عيون زملاء العمــل تلســعني..صــفرة الأمــوات تعلــو وجهي..العود يضــمر..مــاء الحياة يجف رويداً..رويداً..وأنا غارق في أغوار الصمت..تائه في غياهب اللاوعى..الأشباح السوداء تسير في الطرقات..تجذبني بخيوطها السحرية..أهوي إلي القــاع. الأيــدي البيضــاء تمــتد نحــو مــن الآفــاق البعــيدة..أتضــاءل..يتحول كياني إلي ذرة ضائعة في رحم الزمــن. ويا أمي أين أهرب..ويدي تدير عجلة القيادة إلي الدار العتيقة..دارك....).

كم مضي من الزمن..ساعة..يوم..دهر..لا يدري..فقط يجد الســيارة تنطلق..**(ألف عين في حنايا العقل..تنتفخ بجماجم الأسلاف..وعنترة يمسك بالسيف يبتغي الخلاص..والرياح الآتية من ناحية الغرب..تنحت صخور الصحراء الممتدة بلا نهاية..).**

طـــريق "الظهران" الواحدى الاتجاه تنهبه السيارات..تمرق بجـــوار أذنـــه اليسرى كالسهام..الهواء الرطب يمتص كل أصوات الوجود..يصب في أذنيه ألحان النشاز..العرق اللزج يجعلـــه يـــتوق إلى خلع جلده..وإلقائه تحت آلاف العجلات الدائرة فوق الطريق.

مـــن بعـــيد..تلـــوح مشـــارف المدينة..والمنازل المتجاورة تقترب..الدار علي بعد خطوات. تبطئ السيارة..تسرع دقات قلـــبه..يود لو عاد أدراجه، وألقي بنفسه بين جدران حجرته الجديـــدة. كـــيانه يكـــاد يـــتحول إلي شطرين..ولا مهرب مـــن العودة..والمحاولة من جديد...قد يلين الصخر..ويعود التئام الكيان.

تـــدور عجـــلات السيارة نحو اليمين..تقف لحظة..ثم تعود فتـــتجه نحـــو اليســـار.. تقـــف لحظة أخري..تمضي نحو اليمين..تقف..تنطلق إلي الأمام من جديد..تدور حول الميدان الواســـع..تـــندفع كالســـهم..تخترق الطرقات..عيون المارة تصـــوب نظـــرات الدهشة نحو السيارة الزرقاء التي تدور كالنحلة الحائرة.

وجهـــه غـــارق في العرق والذهول. كل شئ غريب...كأنه يري كل شئ لأول مرة..!

بـــاب الـــدار الأســـود اختفـــي..والمـــنازل المجـــاورة..
والـــناس..والمـــتاجر..والشـــجرة العتيقة.. كل شئ ابتلعته
الأرض.

يعـــيد المحاولـــة.. يجد في البحث عن الدار..يتذكر أنها في
الشـــرق..ينطلق..يبصر الشجرة العتيقة أمامه..شعاع الأمل
يقوي في أعماقه..يخال نفسه أمام الدار ..يمني نفسه براحة
الوصـــول..يحـــدق بعينيه في زوايا المكان. لكنه لا يتعرف
علـــي شـــئ. يصـــغي إلـــي هـــاجس يـــناديه..لعلهـــا في
الغرب..أجل..ربما. وفي الغرب لا يتعرف علي شئ..كأنه
أتـــي بعد ألف عام..والدار ليست هي الدار..والطريق غير
الطريق..وكأنه لم يكن هناك دار في يوم من الأيام!.



الخروج من الشرنقة



هــــا أنت تكبل الدموع في عينيك كيلا تنحدر علي وجنتيك أمام الأنظار..تتخفي خلف أقنعة المرح المصطنع، وتكتشف أنــك ممثل كبير. تخرج في الصباح مرتدياً حلتك الشتوية، وربطـــة العنق المحيطة برقبتك فوق الياقة البيضاء المقواة، وحذاؤك الأسود اللامع والحقيبة الدبلوماسية الشكل في يدك. مـــن يـــراك يظن أنك من السادة الأثرياء..وبعض المثقفين يضـــعونك في طبقة البرجوازيين المترفين!. مخدوعون..لا يعـــرفون أنــك أفقـــر مـــنهم..وأنــك تغسل ثيابك وتكويها بـــيدك..تمســـح حذاءك بنفسك، ولا تذهب إلي المسرح إلا مدعـــواً!. هـــذه "الفيلا" القديمة القابعة في أحد شوارع حي العجوزة الجانبية التي تركها أبوك ميراثاً لعشرة من الأبناء، وخمسة من السكان، تجعل الآخرين يحسبون أنك من القطط السمان الذين تحدثت عنهم الصحف في بداية الانفتاح. ولعل بعض الجيران يتهمونك بالبخل لأنك لا تشتري سيارة رغم ثـــرائك!. وها هو أحد سكان "الفيلا" العامرة يطالبك بإجراء بعـــض أعمـــال الصـــيانة فيها، وعندما تمهله بعض الوقت لتدبير المال اللازم، يسألك مبتسماً ابتسامة باردة:

- **لماذا لا تسحب ما تحتاج من البنك؟**

آه..البنك!!..لن يصدق مهما قلت..وحتى لو أقسمت..أنك لا تملك أي رصيد في البنك، والسبب ببساطة أنه شخصياً لديه رصيد محترم في البنك، غير ريع حديقة الموالح التي يملكها فــي بلدته، ويحصل منها في كل موسم علي إيراد ومكسب.
لا يــدرك حقيقة ظروفك سوي قلة من أصدقائك المقربين، وفـــي مقدمـــتهم رفيق رحلة عمرك الذي يؤكد لك دائماً أن فكرة الناس عنك هي الستر بعينه!
لكــنك فـــي النهاية مظهر يخدع السذج! أنت فقير، وغيرك يلعــب بالمال! تدور في دوامة الروتين اليومية الرهيبة منذ الصـــباح حتى تضع رأسك علي الوسادة، وإحساس غامض بالخوف الخفي من النوم الذي لا تعقبه يقظة!. وتظل تتسمع دقـــات قلـــبك التـــي تخـــترق أذنيك بوضوح، وتكاد تشعر بالاختـــناق وتجمد الأنفاس، فتزيح الغطاء من فوق رأسك، وتجذب شهيقاً عميقاً إلي صدرك، وتلتمس مع لمسات هواء الحجـــرة البارد شيئا من الراحة، وتستسلم بعد دقائق لخدر الـــنوم..تغيـــب عن عالم الشعور. تتفتح عيناك علي ضوء النهار من جديد..تكتشف أنك مازلت حياً.. تواصل الطقوس المعـــتادة. تدخـــل الحمـــام..تغتســـل..تحلق ذقنك..تتناول إفطـــارك..ترتدي ملابسك..تهرع إلي الطريق..تلقي بنفسك

فـــي زحام الحافلة الحكومية. تقضي فترة من العذاب داخل هذه العلبة البشرية..تخلص جسدك بصعوبة لتهبط في ميدان الـــتحرير. تتجه إلي المجمع لتقف في طابور المصعد..تلقي بنفســـك فوق مقعد مكتبك..تفعل نفس الشئ الذي ظللت تقوم به منذ خمسة عشر عاماً!. يا للزمن الهارب! كل هذه السنين مـــرت، وأنـــت تعاني نفس المعاناة كل يوم، وتتجرع ذات المرارة!!..تنتظر كل يوم أن تجد مفتاح الفرج الذي يسمونه الصبر، فلا تعثر علي شئ سوي المنغصات والآلام.

أســـرتك زادت..والمرتـــب زاد.. لكـــن الأســـعار زادت أيضاً..والهموم..والأحزان..والدموع. كل شئ زاد .. ماعدا الصدق، والإخلاص، والانتماء، والإنتاج!.

هـــا هو قطار الحياة يصل بك إلي بقعة جديدة أرضها تثمر الشـــوك، وســـماؤها تمطـــر الأحجار في زمن لا يعترف للضـــعفاء بالـــبقاء. ليس أمامك إلا استعادة روحك الثائرة، والإقـــدام علي صنع حياتك من جديد في عصر العولمة في غياب المضمون كما يقول محاور التليفزيون!!

أفكـــار المشـــروعات كنز ثمين في رأسك، وكل شئ يحتاج الـــتجربة، وهـــا أنـــت تتابع مشاهد من الأحلام في أعماق الدماغ، وتكتشف لأول مرة أنك قادر علي تحويل الخيال إلي

حقــيقة أسطع من مصباح مكتبك المتوهج ، فتلملم أوراقك المتــناثرة، وتكتــب عشرة سطور في ورقة بيضاء تطويها بحرص، وتضعها في ظرف تكتب علي جانبه: مهم للتنفيذ!!

المؤلف

أسامة قرمان

* من مواليد ١٩٤٨ م.
* حصل علي ليسانس الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧١ م.
* صحفي نقابي بجريدة "السياسي المصري" الصادرة عن مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر القومية.
* عمـــل خبيراً بالصندوق المصري للتعاون الفني مع أفريقيـــا، وقام بأنشطة أدبية وفنية وإعلامية في جمهورية "جيبوتي".
* نشـــرت بعـــض قصصه في دوريات صحفية متعددة مثل: **المساء، الأهرام المسائي، اللقاء العربي، الملتقي الدولي، السياسي، تفانين.**
* نوقشـــت قصصه في "نادي القصة" ونقابة الصحفيين (جماعة الجيل الجديد)، وكرمة ابن هانئ (جماعة فضفضة).
* صـــدرت مجموعته الأولي عن سلسلة **(الكتاب الأول)** الصادرة عن المجلس الأعلي للثقافة بعنوان **(في انتظار شئ ما).**
* **تحت الطبع:**

مجموعتـــان قصصيتـــان بعنوان:

(كـــف عروســـــة) و (آفـــاق الـــواق).

المحتوى